أم عمــــارة . . .

« ومن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة ؟ ! »
محمد رسول الله

للأستاذ محمد محمود زيتون

(٢)

طلع الصباح ، فاتجهت الأنظار إلى جبل أحد ، كأنما كانت الشمس هي الأخرى تشير إليه بأشعتها الحامية ، وها هي أم عمارة تدلف في همة ونشاط ، ومعها سقاء فيه ماء لتسق الجرحى ، ولما احتدم الضراب ، أخذ الناس يولون ، ولكن أم عمارة كانت ممن ثبت مع النبي ، ومعها زوجها وأختها وولداها حبيب وعبد الله ، كلهم يتلقى النبال وهي تتهاوى كالبروق على رسول الله ، فلا يخلص منها إليه شيء

هذه أم عمارة بقامتها المديدة ، والمصائب في حقويها ، وسقاء الماء بين قدميها ، والقوس بين يديها ، ومسلمة يصوب إليها سهماً يصيب يدها ، فينزف الدم ، ويتلفت النبي إلى عبدالله ابن زيد ويقول : أمك أمك !

ولكنها تمضي إلى الكنانة المنثورة أمامها فترمي سهماً بعد سهم غير عابئة بجرحها هذا ، ويعينها ابنها على قتل عدو الله مسلمة ، وينسى عبد الله جرحه الذي لا يرقأ دمه ، ويحسبه أن قد ظفره الله بعدوه ، وعدو دينه ، ورد كيده في نحره لم يخلص أذاه إلى نبي الله ، ويظل عبدالله يتلقى السهام ، فيراه النبي ، والنزيف منه لا ينقطع فيقول له : اعصب جرحك يا عبد الله

ويبلغ الإعياء من عبدالله مبلغاً عجباً ، فقد غلبه جرحه حتى برك كالجمل ، وعمدت إليه أمه ، ونزعت من حقويها عصابة ، وضمدت جرحه ، وأخذت بذراعه وهي تقول : انهض بني فضارب القوم

وتتلفت يمنة ويسرة ، وعلى ملامح وجهها لهفة إلى ترس تتخذها هدفاً لنبال العدو دفاعاً عن رسول الله ، والناس ينفضون منهزمين يولون الأدبار ، وإذا برجل في الراجعين وترسه معه فيقول له النبي :

يا صاحب الترس ، ألق ترسك إلى من يقاتل

ويلق الرجل ما معه ، ويمضي وهو لا يلوي على شيء ، فتنفرج أسارير أم عمارة إذ تتناول الترس تحمي بها وجه رسول الله ، وتظل تارة تترس دونه وتارة تعصب الجرحى ، وتارة أخرى ترى عن القوس ، نبلا بعد نبل ، وهي مع ذلك كله تستفز زوجها وأختها وولديها للنهوض والقتال ، وتفرغ الماء في أفواه جرحى المسلمين ، ويعجب النبي لهذه القدرة العجيبة وذلك المضاء الفائق بينما سائر الجيش يلوذون بالفرار ، فينظر إلى أم عمارة فيقول لها :

ومن يطيق ماتطيقين يا أم عمارة ؟

وفجأة يلمح النبي رجلا في القوم ضرب عبدالله ، ثم انفتل كالأفعوان إلى وكره الخبيث فيشير إليه النبي ويقول لأم عمارة : هذا ضارب ابنك ، فتعاجله أم عمارة بضربة في ساقه ، فيبرك حيث هو كالخيمة انقض عليها صاعق من السماء السابعة ، ويتلوى على نفسه وله جعير كأنه الجمل الذبيح ، ويبتسم النبي ويقول : استقدت يا أم عمارة . ويمينها طلحة على عدوها فيعلوه بسيفه حتى يجهز عليه

ولم تكد أم عمارة ترى الرجل قتيلا حتى رجعت إلى وراء كأنما تبدى لرسول الله أسفها أن سبقها طلحة إلى غريمها ، فلم يجعل الله مصرعه على يديها ، ولكن النبي الكريم يبادرها بقوله مشجعاً :

الحمد لله الذي ظفرك ، وأقر عينك من عدوك ، وأراك ثأرك بعينك . فيستريح بالها ، وتطمئن نفسها ، وتهدأ ثورتها ، ولكن النبي يلمح جرحاً بعاتقها وهي لا تشعر به فينظر إلى حبيب بن زيد ويقول له : أمك أمك ، اعصب جرحها ، بارك الله عليكم من أهل بيت ، رحمكم الله أهل البيت

وأسرع حبيب إلى نزع عصابة من عصائب أمه ، فضمد جراحها ، وحبس نزفها ، وعلى فم أم عمارة بسمة كأنها البطل الظافر والضرغام الكاسر ، لولا أنها حوراء قد هبطت من الجنة ترفل في هالة من القدس المنير ، فتقول للنبي الكريم تبتغي رضوان ربها :

يا رسول الله ، أدع الله أن نرافقك فى الجنة

فيرفع النبى يديه إلى السماء ويقول : اللهم اجعلهم رفقائى فى الجنة

وما هى إلا دمعتان أصفى من ماء المزنة تنحدران فى رفق وحنان على خديها ، وتقول فى رضى وإيمان : والله ما أبالى ما أصابنى من الدنيا بعد ذلك

وخفت الوطأة ، وانقشع الغبار ، فمضى على وسعد برسول الله إلى المدينة ، حيث أخذت فاطمة الزهراء تغسل الدم عن وجه أبيها ، فما إن هدأ حتى نظر إلى من حوله ، وقال كأنما يشاركهم الحديث عن أم عمارة وما أحسنت من بلاء غداة أحد :

ما التفت يميناً ولا شمالا يوم أحد إلا رأيتها تقاتل دونى .

وتناقل الناس أخبار أحد ، وسار ذكر أم عمارة فى الركبان ، ولا ينفض سامر للرجال إلا عن أم عمارة ، ولا ينعقد مجلس للنساء إلا بأم عمارة ؛ دخلت عليها خباءها أم سعد بنت سعد بن الربيع الرجل الأنصارى الكريم الذى طابت نفسه لأخيه المهاجر عبد الرحمن بن عوف عن نصف ماله ؛ وإحدى زوجتيه ، ولم تكد أم سعد تلج الباب حتى تنسمت عطراً يفوح من أرجاء البيت ، وإذا بالبهاء يأخذ عليها جوانب نفسها . ولم لا ؛ وقد وقفت أم عمارة تصلى فى المحراب ، وتتلو القرآن فى هدأة نفس ، ورقة قلب ، وعبرة عين ، ومقاطع الآيات تكاد تشق صخور الجبال الرواسى . وألفت أم سعد نفسها وقد جمدت فى مكانها ، وألقت السمع والبصر والفؤاد جميعاً إلى أم عمارة وهى تتلو :

« ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه ، حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون ، منكم من يريد الدنيا ، ومنكم من يريد الآخرة ؛ ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا الله عنكم ؛ والله ذو فضل على المؤمنين » . الله أكبر

وتركع وتسجد ثم تنهض إلى الثانية ؛ فتستفتح بأم الكتاب ثم تتلو :

« إذ تصعدون ولا تلوون على أحد ؛ والرسول يدعوكم فى أخراكم ؛ فأثابكم غما بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم ، والله خبير بما تعملون ، ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم .. » الله أكبر

ولما فرغت أم عمارة من صلاتها ، تقدمت إليها أم سعد بالتحية المشرقة ، فلقيتها بوجه يتهلل بالبشر والرضى ، فبادرتها أم سعد تقول : يا خالة أخبرينى خبرك . فقالت أم عمارة : خرجت أول النهار من يوم أحد ، وأنا أنظر ما يصنع الناس ، ومعى سقاء فيه ماء أسقى به الجرحى ، فانتهيت إلى رسول الله ، وهو فى أصحابه والدولة والريح للمسلمين ، فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله فقمت أباشر القتال ، وأذب عنه بالسيف وأرمى عن القوس حتى خلصت الجراح إلى

ورأت أم سعد على عاتق أم عمارة جرحاً أجوف له غور يلفت النظر فقالت : من أصابك بهذا يا خالة ؟ قالت : ابن قمئة أقماه الله ، لما ولى الناس عن رسول الله أقبل يقول : دلونى على محمد فلا نجوت إن نجا ، فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير ، وأناس ممن ثبت مع رسول الله ، فضربنى هذه الضربة ؛ فلقد ضربته على ذلك ضربات ، ولكن عدو الله كانت عليه درعان

فقالت أم سعد : سمعتهم يقولون إن رسول الله دعا أن تكونوا رفقاءه فى الجنة ؛ فقالت أم عمارة وقد انداحت الإشراقة على محياها : والله ما أبالى ما أصابنى من الدنيا بعد ذلك !

وانقضت على النبى ثلاث سنوات بعد أحد ؛ والأحداث شاهدة بانتصار الحق وانتشار الدعوة ، وطالت غيبة المهاجرين عن الأهل والوطن ، واهتزت الجوانح شوقاً إلى بيت الله الحرام ، وقد وقفت قريش تصد المؤمنين عن الحج ؛ بينما يباح ذلك لأوباش الناس

ونزل النبى تحت شجرة بالوادى ؛ وأخذ البيعة من المسلمين فكانت بيعة الرضوان ، وفتح الله عليهم فتحاً مبيناً ، وامتلأت القلوب إيماناً بدخول مكة . . وكان لابد أن تشهد أم عمارة هذه البيعة لتظفر بأجر المجاهدة ، وتحظى بشرف الرضى عند الله

ولما لحق رسول الله بالرفيق الأعلى ، وولى أمر المسلمين خليفته الأمين أبو بكر الصديق ، اندلعت ألسنة النفاق من جحور الفتنة ، ونجمت قرون الردة من رءوس المتنبئين ، وما كان من خليفة محمد إلا أن يقاتل هؤلاء حتى يشهدوا ألا إله إلا الله فيعصموا بذلك دماءهم منه

هنالك ابتلى المؤمنون ، فكأنما بعث المذبون فى الله بعثا

آخر ، ولقوا ما كان يلقاه خباب بن الأرت ، وبلال بن رباح ، وعمار بن ياسر ، وزنيرة ، وظن الكافرون أن الناس لا بد منطلقون من عقال محمد وقد مات ، وحسبوا أن هذا الدين الذي جاءهم إنما هو غاشية أصابتهم ، فهم من بعد موته مفيقون ، وانقلبت في رءوسهم موازين التفكير ، فراحوا يستبدون علامهم مدركين مجداً لأنفسهم ، إن لم يكن كمجد محمد ، فلا أقل من أن يمحو كل أثر له حتى تعود الأصنام والأوثان مكانتها ، وللأساطين الجاهلية سلطانهم

وكان مسيلمة الكذاب من هؤلاء الذين سول لهم الشيطان أعمالهم ، فأضلهم وأفسد بالهم ، ولم يعد يرى إلا مسلكا واحداً هو « الطغيان » عتد سياطه إلى المستضعفين ، فينالهم من التعذيب ما يدفعهم إلى الخروج من دين محمد ، ويقهرهم على الشهادة بأن مسيلمة رسول الله ، وأنه السيد المطاع ، وأنه الآمر الناهي ، وأنه مالك الرقاب ، وقابض الأرواح

وأخذ مسيلمة حبيب بن زيد فيمن أخذ . وظل يفتله في الذروة والغارب ليفتنه عن دينه ، فلم يظفر منه بما كان ينتظر ، ولما لم تنفع معه وسائل الإغراء ، عمد إلى الأغلال فصفده بها ، والطعام والشراب فحرمه منهما ، والحديد والنار فصبهما عليه ، وجعل يقول :

— أتشهد أن محمداً رسول الله ؟

— نعم صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم

— أتشهد أني رسول الله ؟

— لا أسمع

ضاق مسيلمة ذرعاً بهذا الفتى العنيد حبيب بن زيد ، وأخذ يستعدي عليه زبانيته من الغلاظ الشداد ، فلم تفلح لهم حيلة ، وازداد الكذاب غيظاً وحنقاً ، واستبدت به شهوة الجبروت ، ونزوة الطغيان ، ورأى بثاقب فكره أن قطع العقدة أيسر من حلها ، وأن لا سبيل إلى الراحة إلا بإخماد هذا الضمير العربيد بين حناياه ، ودارت الفكرة ، ودارسها حتى طلع عليه الصباح ، فاندفع كالثور الأسود ، وفي عينيه شرار ولهيب ، وعلى صفحة خده عروق توشك أن تجحظ بكل ما يعتمل به صدره ويغلي به مرجل حقده

وتسلل من خلف حبيب ، فاستمع إلى صوته المتهدج ، وأنفاسه المترامية إلى أطراف الحياة لا تزال تردد في هبوط : الله أكبر . . . ولم يكتم مسيلمة نار الضغينة في نفسه ، فاستل سكيناً ، وجعل يقطع فريسته عضواً عضواً ، يقطع باليمين ويرمي بالشمال ، والدماء تنبثق كالنوافير في عينيه ، كأنها تدفق من قدر على النار ، ومسيلمة كالجزار لا يبالي ما يصنع ، والأشلاء في يسراه ترعش كأنما تصب عليه اللعنات ، فلا يطيق صبراً عليها ، فينحيها عنه بأقصى ما يستطيع من قوة ، ولم يزل به حتى خفتت أنفاسه وهي تمتد إلى وادي الخلود

واستراح مسيلمة منذ انقطعت كلمات حبيب بعد أن قال آخر ما قال : الله ربي : وما كان للطاغية أن يدع هذه الأشلاء ، وتلك الدماء هكذا ، فقد واتته فكرة طائرة اهتز لها اهتزازاً عنيفاً وهو في نشوة النصر المنحوس ، تلك هي أن يشق صدر حبيب ويستخرج قلبه ، ويرفعه يزق رعبه ، ويحدجه بنظره في عين الشمس ، ليعبث بهذا القلب الذي امتلكه محمد ، ولينبش السر الذي كمن فيه الإيمان ، وأخيراً ليقول للشمس :

اشهدي ، فقد أهلكت بيدي ما أراد محمد أن يهلك به سلطاني . وقالت له الشمس : لا أسمع ، فدخل في روع مسيلمة أنه صوت حبيب ، فهاله أن رآه وقد مات بين يديه ، وصوته مازال يتردد مع أشعة الشمس ، فإذا بهذه الأشعة كأنها رشاش الدم ينصب في وجهه فما يطيق دفعه ، ولا يستطيع أن يتفاداه

ألقى مسيلمة السكين من يده ، في هدوء جمع بين النصر والهزيمة ، وكأنما صحا من حلم يداعب خياله في نأمة الليل البهيم ، فما هو إلا أن غشيته كتائب الإيمان تسيل بها « اليمامة » وتنقض على مسيلمة كأنها موت الفجاءة ، وإذا بأم عمارة كأنها بمفردها كتيبة خرساء ، درعها سابغة ، وخوذتها شاملة ، وكنانتها في منكبيها ، وسهامها منتضاة ، وحرابها مختصرة

وشمرت الحرب عن ساقها ، وشرعت أم عمارة وبين يديها ابنها عبد الله تتفحص مسيلمة في عصابته فإذا بالفاجر المغمر يحوطه عبيده من كل جانب ، فأشارت إلى ابنها ، فرماه رمية استقرت في نحره ، فانتفض عنه كل من كان حوله ، فقام آخر وأجهز عليه بسيفه ، وخلفه ملحمة للجوارح والكواسر